



**Eric Calderwood.- *Colonial al-Andalus: Spain and the Making of Modern Moroccan Culture* (Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 2018), 408 p.**

إريك كيلدروود.- الأندلس في ثقافة المغرب الاستعمارية (كمبريدج (و، م، أ): منشورات جامعة هارفارد، 2018)، 408 ص.

صدر للباحث الأمريكي إريك كيلدروود (Eric Calderwood) عن منشورات جامعة هارفارد الأمريكية كتاب بعنوان:

*Colonial al-Andalus: Spain and the Making of Modern Moroccan Culture.*

ويمكن تعريبه بـ الأندلس في ثقافة المغرب الاستعمارية، أو كما يقترح هو شخصيا الأندلس في المخيلة الاستعمارية، علما أن الترجمة الحرفية للعنوان بصيغة "الأندلس الاستعمارية" قد تخل بالمضمون والمقصود، مما حدا بالترجمة الإسبانية التي أنجزها مؤخرا أوسكار مرسكال (Óscar Mariscal) للكتاب نفسه تأتي هكذا: الأندلس في المغرب: الإرث الفعلي للاستعمار الإسباني في المغرب؛

*Al Ándalus en Marruecos: El verdadero legado del colonialismo español en el Marruecos contemporáneo* (Cordoba: Almuzara; Édition, 2019), 416 p.

يقع الكتاب في 400 صفحة من القطع المتوسط، وفاز به صاحبه بثلاث جوائز أبرزها جائزة أخيرة حصل عليها من المعهد الأمريكي للدراسات المغاربية سنة 2019.

ويعتبر إريك كيلدروود نفسه مستعرباً أمريكياً متحفظاً من صفة "المستشرق" التي اتخذت بعداً سلبياً بعد صدور كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد. تعلم العربية وعمّق معرفته بالثقافة المغربية-الأندلسية بمعاهد ومؤسسات تُعنى بتدريس الأجنبي بدمشق وفاس وتطوان. استهل بحثاً عن مملكة بني الأحمر، واهتم بالأندلس تاريخاً وثقافة، لكن إقامته بالمغرب، وخاصة بتطوان، غيرت مسار اهتماماته البحثية إلى رصد الأثر الأندلسي في المرحلة المعاصرة سواء بالمغرب منذ تعرضه للضغوط الاستعمارية إلى غاية الحماية، وفي إسبانيا من خلال رصد تمثيلات الأندلس واستعمالاتها من قبل مختلف التيارات الفكرية-السياسية، بما في ذلك تلك المتطاحنة خلال الحرب الأهلية التي عصفت بالبلاد قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وتجدر الإشارة في البداية إلى وجود تقليد بحثي في الولايات المتحدة الأمريكية يخصص الدراسات الأكاديمية المتعلقة بالأندلس، فبرز في هذا المجال بعض الباحثين من بينهم مريا روصا منكال (Maria Rosa Menocal)، لكن بالاعتماد على توظيف النصوص الأوربية لعدم تحكمها في ناصية اللغة العربية، إلى جانب ديفيد نيرنبرگ (David Nirenberg)، وروص بران (Ross Brann)، وأليشيا رمي كنستييل (Olivia Remie Constable). وفي السنوات الأخيرة، برز بعض الباحثين من بينهم إيريك فيلد (Erica Feild)، وإيريك كيلدروود (Eric Calderwood)، وحسين فَنسي (Hussein Fancy). وفضلاً عن ذلك، يوجد اهتمام كبير بالعلاقات الإسبانية العربية في العصر الوسيط، لكن عدد الباحثين الأمريكيين ممن استغلوا تلك العلاقات لدراسة حضورها في التاريخ المعاصر يظل قليلاً. ومن ثمة، يسعى الكتاب موضوع هذه الورقة إلى التمييز بين تاريخ الأندلس والاستعمالات السياسية للأندلس في التاريخ المعاصر.

وإذا تضمن هذا المؤلف عنواناً يحيل على التاريخ، فالمقاربة المعتمدة في تحريره تجعله أقرب إلى الدراسات الأدبية المقارنة منها إلى حقل الدراسات التاريخية، من حيث اشتغاله على "السرديات" المهمة بموضوع الأندلس وتمثلاتها لها، أو بعبارة أخرى من جانب انشغاله بأشكال الخطابات الناشئة عن الأندلس. وبناء عليه، فإن كتاب الأندلس في الثقافة الاستعمارية لا يتناول تاريخ الأندلس بالتحليل، وإنما يعالج مواضيع التمثيلات المتعلقة بالأندلس وإعادة إنتاج الإرث الأندلسي في الكتابة المعاصرة؛ أي أنه يهتم بكيفية تطور الخطاب عن الأندلس خلال المرحلة الاستعمارية. وبذلك يدخل ضمن التقليد الأكاديمي الأمريكي مع التطلع إلى تقديم منظور جديد.

وخلافاً لجيل من الباحثين الأمريكيين ممن ركزوا على تاريخ الاستعمار الفرنسي لشمال إفريقيا، اختار إريك كيلدروود توجيه اهتمامه إلى التجربة الاستعمارية الإسبانية. وبغية تعميق فهم الظاهرة الاستعمارية، والسعي إلى المقارنة بين التجربتين المذكورتين، خلص في إثر ذلك إلى استناد الاستعمار الفرنسي إلى فكرتين؛ تتجلى الأولى في تقديم فرنسا تفوقها الحضاري على المغرب ومغايرتها الكاملة للذات المسلمة، وتتجلى الثانية في استناد الاستعمار الإسباني إلى مبررات مناقضة لنظيره الفرنسي تقوم على مقومات القرب الجغرافي والثقافي والتاريخي بين إسبانيا والمغرب.

واللافت للانتباه في هذا العمل، اطلاع صاحبه على المدونات التاريخية والأدبية العربية عامة، والمغربية منها خاصة، وفي مقدمتها كناشة المفضل أفيال وعمدة الراوين وتاريخ تطوان، كما اطلع على الرصيد الإسباني المتعلق بالمغرب بدءاً من بدرو دي ألكون (Pedro de Alarcón) صاحب اليوميات الشهيرة عن حرب تطوان لستي 1860-1859. ثم مرّ إلى تحليل النصوص الواردة فيها المتعلقة بـ "الأندلس" لإبراز صورتها عند العرب، أولاً، فتوصل إلى عدم اشتراكهم في النظرة نفسها إلى الأندلس؛ إذ استنتج بأن المشاركة يرونها جزءاً من الماضي، أما الوطنيون المغاربة يعتبرونها رؤية حيوية باعتبار استمرارية الأندلس في المغرب. وعند الإسبان، ثانياً، مشككا في القطيعة المزعومة بين التيارين الجمهوري والفرنكوي في نظرتها تجاه الأندلس.

ويستهل المؤلف كتابه مؤكداً على قوة حضور الأندلس في الثقافة المغربية، بالحديث عن حاضرة تطوان - عاصمة الحماية الإسبانية - من خلال شخصيتين؛ هما أبو الحسن علي المنظري القائد الأندلسي الذي أعاد بناء المدينة سنوات قليلة قبيل سقوط غرناطة. وعبد الخالق الطريس الزعيم الوطني المنحدر بدوره من أصل أندلسي، والذي قاوم الاحتلال الإسباني. وهو الأمر الذي يجعل الامتداد الأندلسي يحضر بقوة في الكتابة التاريخية، كما هو الحال مع تاريخ تطوان لمحمد داود، وفي الخطاب السياسي، على غرار ما جاء عند الطريس في خطابٍ تلاه سنة 1936.

وبخصوص إسبانيا، يسائل كتاب الأندلس في الثقافة الاستعمارية بعض البراديجمات الإسطغرافية الإسبانية، وفي طليعتها تقديم الحرب الأهلية بصفتها قطيعة تفصل بين نظرتين متناقضتين لتاريخ إسبانيا، إذ اقترن التمثل المعاصر للأندلس، وبشكل حصري تقريباً، في الكتابة التاريخية الجمهورية ومع مدرسة أمريكو كسترو. وتحولت الأندلس في هذا التقليد الإسطغرافي الإسباني، إلى رمز للدفاع عن إسبانيا العصرية فيما يخص قيم

التعددية الثقافية واللغوية والدينية. وعلى عكس ذلك، يكشف كيلدروود عن تقاطعات موجودة بين التفكيرين الجمهوري والفرنكوي في نظرتها إلى الأندلس. مما جعله يلح على استخدام الذاكرة الأندلسية من قبل دعاة ذئك التيارين بغية تأكيدهما على القرب الثقافي بين المغرب وإسبانيا، وتبرير المشروع الاستعماري لإسبانيا بالبلد الجار، ليصل المؤلف إلى خاصية تعقيد مفهوم الأندلس وخضوعه للأهواء الإيديولوجية إلى درجة التنصيص على وجود أندلس فرنكوية، وفرنكوية فيلو إسلامية، عكس التصورات السائدة عن الموضوع.

وتماشيا مع تصوره النظري والمنهجي المنبثق من الأدب المقارن، لم يوجه المؤلف اهتمامه إلى الأندلس في حد ذاتها، بقدر ما ركز نظرتة على استعمالها السياسية في المرحلة المعاصرة، حين تحولت إلى أسطورة ثقافية، ولا يقصد المؤلف الأندلس باعتبارها تخيلا، وإنما قصدها بالأحرى بمعناها الأنثروبولوجي لكلمة الأسطورة؛ أي التاريخ باعتباره استعمالا اجتماعيا يتيح إمكانية تفسير العالم. وفي هذا الصدد، رصد الباحث أشكالا من التمثل المعاصر للأندلس؛ فأشار إلى وجود أندلس فلسطينية في قصائد محمود درويش، والأندلس المغربية، والأندلس الإسبانية، والأندلس الأنثوية في "ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور، والأندلس الإسلامية لشكيب أرسلان، والأندلس العربية عند جورج زيدان ... وبذلك يتميز هذا التمثل بليوننة كبيرة إيديولوجيا وثقافيا؛ إذ يؤكد كتاب الأندلس في الثقافة الاستعمارية على تعقيد فكرة الأندلس وتجانسها، كما يحلل الاستعمال المتزامن لأسطورة الأندلس في مشروعين متناقضين، هما الاستعمار الإسباني والوطنية المغربية.

وسلط المؤلف الضوء في الفصل الأول من كتابه على بدرو دي ألكون، وعلى علاقته بالحركة الرومانسية خلال القرن التاسع عشر، مما انعكس على اعتباره تطوان استمرارا لغرناطة، على سبيل التشابه والمساواة بينهما. ويبرز كيلدروود في هذا الباب كيف أن دي ألكون عندما حل بتطوان لم يقدم نفسه غازيا مستعمرا للمدينة أخرى، بقدر ما نظر إليها باعتباره قادما أصلها؛ وبذلك تعود تطوان، في نظره، استمرارا لغرناطة والأندلس بالمغرب.

وتناول الباحث في الفصل الثاني، نموذج الفقيه والأديب المفضل أفيال (ت. 1887)، فأكد على استعماله في وصفه لاحتلال مدينة تطوان جنسا أدبيا يعود إلى الأندلس، وهو رثاء المدن، باعتبار أن احتلال مدينة تطوان من قبل الإسبان ليس إلا استمرارا لسقوط المدن الأندلسية في أيادي المسيحيين؛ وعلى هذا الأساس تتبع

المؤلف حضور الأندلس عند المفضل أفيلال في تأليفه التاريخي، وفي نص شعري نقله إلى الإنجليزية. في حين نجد أن رثاء المدن لم يقتصر على المدن الأندلسية، بل تعداه إلى المغرب عندما سقطت مدينة سبتة في أيادي البرتغاليين.

واهتم كيلدروود، في الفصل الثالث، بتحليل شخصية بلاص إنفانتي (Blas Infante) الذي أبدع في نظره صورة بليغة عن الأندلس بالنسبة للإسبان؛ تقوم على الجمع بين ثلوث الأندلس وأندلسيا والمغرب، مما أحدث صدعا في المكان والزمان، باعتبار تشكيل هذه العناصر الثلاثة، وحدة ثقافية وعرقية وجغرافية، واستهدف بذلك استعادة الهوية الأندلسية المفقودة، والبحث عن امتدادها المكاني في أرض المغرب بزيارته مدن تطوان والرباط وأغمات. وإذا اعتبرت الأندلس من منظور رومانسي بوابة مفتوحة على الماضي وتتيح فرصة العودة بالزمن إلى الوراء، فإن بلاص إنفانتي وظفها في اشتغاله على الحاضر، باعتبار أن المغرب امتداداً للأندلس انطلاقاً من المنظور الجيو-تاريخي.

وإن كان هذا المفكر يصدر عن فكر تقدمي مناهض للفاشية الفرنكوية التي اغتالته أياما قليلة عقب اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية سنة 1936، فإن أفكاره نفسها تبناها فرنكو في سياسته الاستعمارية بالمغرب، مما ينطوي على مفارقة غريبة في نظر المؤلف. ويعود ذلك في نظرنا إلى أن فرنكو الذي يمثل التيار المحافظ تصدى لفكرة الأندلس وتحويلها إلى تيار سياسي مناهض للنظام الذي كان يسعى إلى ترسيخه. وفي الوقت نفسه، عمل فرنكو على توظيف رمزية الأندلس التاريخية والمادية لمد جسور الوفاق مع العالم العربي لأهداف سياسية؛ مع المغرب أولا لتبرير الاستعمار عبر فكرة الأخوة المغربية الإسبانية والمشارك التاريخي، ومع العالم العربي ثانيا لتجاوز العزلة الدولية المفروضة عليه. وهذا إلى جانب اهتمامه بالعمل المشترك بغية إيقاف المد الشيوعي الآخذ في التنامي عصرئذ، والذي شكل أحد ركائز مواجهة الأنظمة الفاشية المدعومة من قبل الكنيسة.

وخصص المؤلف الفصل الرابع لدراسة حيثيات الرحلة المكية التي قام بها الرهوني سنة 1937، بتمويل من الجنرال فرنكو، فزار إسبانيا قبل التوجه على رأس ركب للحجاج المغاربة إلى مكة المكرمة. وتلخص الرحلة المذكورة التقارب المنشود الذي سعى فرنكو إلى تحقيقه ليس من بوابة الأندلس فقط، وإنما أيضا من بوابة الإسلام عامة، بتقديم شخصه محبا للمسلمين، انطلاقاً من انتهاء كلا الطرفين إلى ديانتين سماويتين، وفي ظل محاربتة للجمهوريين خاصة الشيوعيين منهم. ويعكس نص الرحلة طموح فرنكو إلى التنسيق مع العالم العربي لمواجهة المد الشيوعي، كما يعكس التصور الذي تمت صياغته عن مفهوم

”الأخوة المغربية-الإسبانية“ الذي اعتمده الاستعمار الإسباني بغية تليين قوة تدخله في المغرب. ومع ذلك، لم يكن فرنكو أول من نهج سياسة التودد هذه إلى المسلمين ودغدغة عواطفهم الدينية، بل سبقه في ذلك الجنرال ليوطي، انطلاقاً من تجربته الاستعمارية، إذ بادر إلى إبداء احترامه التام لعقيدة المغاربة وتقاليدهم، بما في ذلك التقاليد المخزنية، بغية تسهيل التدخل والاستغلال الاستعماريين من قبل فرنسا، رغم افتقادها إلى بعد تاريخي يربطها بالمغرب.

وبناء عليه، فإن نظرية الأخوة الإسبانية المغربية ليست أكثر من حملة دعائية موجهة للخارج لكسب شرعية التدخل في المغرب في تساوقها مع مفهوم الحماية، وموجهة للداخل أيضاً لكسب تعاطف السكان المحليين. لكن واقع ممارسة نظام الحماية، كما أبان عنه جوسب لويس متيو ديستي (Josep Lluís Mateo Dieste) قد قام، خلافاً للنظرية المذكورة، على الأبوية والوصاية والفصل بين المغاربة والإسبان. ويبدو أن هذه النظرية، وإن أسدت خدمة للفكر الاستعماري والنظام الفاشي الفرنكوي، فإنها تظل من حيث المبدأ غير منسجمة معها، بل تتناقض ومقومات الديكتاتورية المرتكزة على التعالي وعدم القبول بالاختلاف. ومع ذلك، استغلت مقومات ”الإسلام والأندلس ووحدة العنصر البشري“ لخدمة المخطط الاستعماري، فضلاً عن إمكانية الانفتاح على العالم العربي، عبر المغرب لتجاوز عزلة إسبانيا في عهد فرنكو بعد سقوط ديكتاتوريتي ألمانيا وإيطاليا... غير أن المؤلف كليديروود بحكم اشتغاله بالأدب المقارن لا يهتم بالنوايا بالقدر الذي يستند في عمله على الخطاب والسر.

واهتم الباحث في الفصل الخامس من كتابه، بتحليل كيفية نشوء فكرة الثقافة الإسبانية-العربية، وحيثيات تحولها إلى أكبر الرموز والمقومات المسخرة للدفاع عن نظام فرنكو، والتميز بين السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب التي حددها في محاولتها تقسيم الثقافة المغربية إلى عنصرين؛ أولهما بربرية أصيلة، وثانيهما عربية دخيلة. هذا في وقت تميز فيه ”عمل إسبانيا في المغرب“ بتقديم نفسها مدافعة عن الثقافة العربية وعن الوحدة الثقافية المغربية، تفادياً للصراع الذي أحدثه الظهير البربري. لهذا، قبل الإسبان بالوطنية المغربية، وعملوا على تغذيتها ودعم القومية العربية والوعي الإسلامي، لتفادي الاصطدام مع الوطنيين المغاربة أولاً، ولإضعاف السياسة الفرنسية بالمغرب ثانياً، ولتوجيه النقد لخصومهم الجمهوريين وجعلهم مجرد مقلدين للسياسة الفرنسية ثالثاً. ويبقى هذا على المستوى النظري، أما على مستوى الواقع، كان الاصطدام مع الحركة

الوطنية مسألة وقت خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وأبرز مثال على ذلك أحداث تطوان لسنة 1948.

وكشف كيلدروود، في الفصل السادس، عن استراتيجية أفكار الفنان مريّو برطوتشي (Mariano Bertuchi)، وكرثية بريوسو (García Barriuso)، بخصوص أصول الحرف والموسيقى المغربية، باعتبارها ذات أصول أندلسية أي إسبانية. وبما أن أحسن العارفين المؤهلين للحفاظ على الفنون والحرف والصنائع المغربية هم الإسبان وليسوا المغاربة، ولا حتى الفرنسيين أنفسهم، وما دامت الفنون المعنية آتية من الأندلس، فإن هذه الفنون - حسب المؤلف - لا بد وأن تكون جزءا من الصراع المحتدم بين إسبانيا وفرنسا.

أما في الفصل السابع، فقد تتبع المؤلف مراحل تطور تشكيل صورة الأندلس في كتابات الوطنيين المغاربة، وصياغتهم لها، مع ذكر المصادر التي اعتمدها، وقد حصرها في أعمال شكيب أرسلان، والكتابات الإسبانية. ثم استنتج أن المغاربة أخذوا في الابتعاد عن النظرة الحنينية الواردة في التي اتسم بها تصور الأمير أرسلان، وتحولوا إلى الحديث عن أندلس حية معيشة، فانتقل بذلك التصور عن الأندلس من الحديث عن "الفردوس المفقود" إلى فكرة الأندلس التراث الحي في القرن العشرين في ظل الواقع الاستعماري.

ويتميز الكتاب عموما بجديته الأكاديمية، وسعة اطلاع صاحبه على المصادر المغربية والإسبانية، ومناقشته قضايا تتعلق بتوظيف الأندلس في السياسة الاستعمارية الإسبانية بشمال المغرب، والدور الكبير الذي اضطلع به منظرها طوماس كرتية فيغيراس (Tomas García Figueras) في ظل نظام فرنكو الديكتاتوري، لكن يصعب في كثير من الأحيان مجاراته في ما توصل إليه من نتائج، لا سيما اعتماده نصوصا أدبية في الأصل ليستخلص منها نتائج تخص السياسة والتاريخ، وإلحاحه على أن فكرة الأندلس صناعة استعمارية في شمال المغرب. وهذا فضلا عن دور الإسبان الكبير في إشاعة الثقافة الأندلسية، من منطلق اعتبارها ثقافة إسبانية، في حين نميل إلى التأكيد على أن الثقافة الأندلسية عنصر مشترك بين المغرب وإسبانيا، بل إن إسهام المغرب في صناعة الثقافة الأندلسية أمر لا يمكن التغاضي عنه بحكم التداخل الكبير بين المغرب والأندلس لقرون عديدة.

محمد رضى بودشار

باحث، تطوان